# القصدية الروائية في رواية "ثلاثية غرناطة"

الباحث: أحمد جمال علي السيد عويضة
باحث دكتوراه

**الملخص**

قصدية الكاتبة رضوى عاشور من روايتها " ثلاثية غرناطة" عبارة عن مجموعة من الآراء والتوجهات المباشرة التي تؤمن بها، وتحاول نقلها للمتلقي من خلال ما تقدمه في عملها الأدبي، وهذه القصدية تتعلق بأيديولوجيتها المكتسبة من طبيعة بيئتها الدينية والثقافية والسياسية، وأيضًا من الخبرات والمؤثرات والأحداث التي مرَّت بها، حيث التكوين الفكري للكاتبة فهي عربية مسلمة عاصرت النكبات التي تعرضت لها الدول العربية بشكل عام، وفلسطين بشكل خاص؛ حيث إنها موطن زوجها وابنها، ومن ثم جاءت قصديتها تعبيرًا عن قلقها النفسي حول المستقبل من ناحية، ومن ناحية أخرى موقفها الأيديولوجي لما يمر به العالم العربي من أحداث وأزمات. وهذه القصدية عبرت عنها الكاتبة من خلال آلية منظمة حيث الأساليب والتقنيات الفنية التي اعتمدت عليها، ومن ثمَّ كانت الجوانب المحيطة بها لها أهميتها في التأثير والإقناع، وهي التي تمثل الفضاء الروائي الأيديولوجي الذي يحتوي على هوية المشاركين ودورهم في صنع القصدية من خلال أبعادهم المعرفية، والسياق الثقافي الذي يُقدمون من خلاله، ومن ثمَّ جاء تحليل القصدية الروائية للكاتبة مختلفًا عن الدراسات السابقة التي تناولت الرواية.

**Abstract**

The intentionality of the writer Radwa Ashour in her novel "The Granada Trilogy" is a set of direct opinions and orientations that she believes in, and tries to convey to the recipient through her literary work. She went through it, and the narrative intent of the Granada Trilogy novel stems from the nature of the intellectual formation of the writer, as she is an Arab Muslim who lived through the calamities that the Arab countries were subjected to in general, and Palestine in particular. As it is the home of her husband and son, and then her intention came as an expression of her psychological concern about the future on the one hand, and on the other hand her ideological position regarding the events and crises

that the Arab world is going through. This intentionality was expressed by the writer through an organized mechanism in which the artistic methods and techniques she relied on, and then the aspects surrounding it were important in influencing and persuading, and it represents the ideological narrative space that contains the identity of the participants and their role in making intentionality through their cognitive dimensions and context. culture in which they are presented.

تقول رضوى عاشور في إحدى محاضراتها: "الكتابة في تقديري فعل معلق بين التلقائية والقصدية، غير الموعى به والموعى به تمامًا، اللعب والضرورة، بساطة التعبير ومشقة البناء، ما يهبط على الكاتب في ومضة إلهامًا وما يحيره ويضنيه ويبحث له عن حل كأنه تلميذ يشقيه حل مسألة في الحساب"(١). ورواية "ثلاثية غرناطة" كانت مزيجًا من التلقائية والقصدية، فالقصدية التي دفعت رضوى عاشور لكتابة رواية نابعة من أحداثٍ معاصرة مشحونة بالألم والتوتر فكونت حالة نفسية خاصة أفرزت أحداث الرواية، وهذه القصدية لم تكن فقط تعبيرًا عن أحداث مؤلمة في فترة تاريخية حالكة، بل امتزجت معها تلقائية معينة جاءت محمولة على اللاوعي النصي مثلت قصدية أخرى مستترة خلف قصديتها المباشرة. وهذا التركيب الكتابي تعرفنا عليه من خلال التحليل النفسي للرواية، حيث ساهمت جهود علماء النفس بشكل كبير في تقديم تفسيرات عديدة للنصوص الأدبية، وساعدت في فهم خصوصية النص وتفرده.

**رواية ثلاثية غرناطة وسيلة للاستشفاء النفسي:**

لقد صرَّحت الكاتبة بهذه القصدية بشكل مباشر فقالت: "وفي تقديري أن كتابة غرناطة بأجزائها الثلاثة: غرناطة ومريمة والرحيل كانت ضربًا من ضروب الدفاع عن النفس الذي تلجأ إليه المخلوقات بشكل غريزي حين يداهمها الخطر. الكتابة هنا بدأت احتياجًا نفسيًا صرفًا، لا التزامًا بدور، ولا طموحًا لإنجاز مشروع ثقافي يعتمد على إنتاج مرحلة من مراحل التاريخ العربي في شكل روائي"(٢).

ورغم التصريح المباشر للكاتبة إلا أن القارئ يستطيع أن يشعر بهذا الاتجاه النفسي عند قراءته للرواية، والذي يظهر قبل البدء في قراءتها؛ حيث الإهداء، فقد أهدت رضوى عاشور الرواية لابنها، فتقول: "إلى ابني تميم البرغوثي"(٣)، وهذا الإهداء إذا تناولناه من خلال مظهره الخارجي سنجده يبدو إهداءً عاديًا خاليًا من الدلالات سوى ما تحمله من مشاعر فطرية بين أم وابنها، ولكن عند ربط هذا المظهر الخارجي للرواية بقرائن أخرى يتجلى لنا بعدٌ دلاليٌ آخرٌ.

**فأولًا**: بعد تقصي أعمال رضوى عاشور القصصية والروائية والتي بلغ عددها اثنى عشر عملًا، وجدنا أن عملين فقط من هذه الأعمال قد خصصت لهما الكاتبة إهداءً، العمل الأول هو الرواية التي بين أيدينا، والآخر رواية "الطنطورية" وأهدتها إلى زوجها، فقالت (إلى مريد البرغوثي)[٤].

**ثانيًا**، تقديم هذا الإهداء إلى هذين الشخصيتين لم يكن فعلًا اعتباطيًا، ولكنه كان تخصيصًا مقصودًا ومناسبًا لكلٍ منهما، فكان يمكن أن يضمن الإهداء الابن والزوج معًا، وكان يمكن أن يكون هذا الإهداء على كافة أعمالها الأخرى، ولكن هذا لم يحدث؛ لغرض محدد عند الكاتبة، فرواية "الطنطورية" تتحدث عن فلسطين من أولها إلى آخرها، لذلك أهدتها إلى زوجها الفلسطيني، أمَّا رواية "ثلاثية غرناطة" فلأنها وليده أحداث متوترة عاصرتها الكاتبة ضاع بسببها ملامح المستقبل وسط حالة من التوتر والقلق النفسي، فقد قدمت هذا الإهداء لابنها الذي يمثل المستقبل بالنسبة لها، ولذلك تتساءل في الرواية على لسان سليمة: "كيف يعيش أحفادنا بعد مائة عام".[٥]

كما أن هذه الحالة النفسية التي أعترت الكاتبة قد انتقلت إلى الرواية، فنرصدها عند الشخصيات الروائية، فالشخصيات كلها تعيش في ظل حالة نفسية مأزومة متوترة، فأبو جعفر يموت كمدًا، وسليمة حبيسة كتبها التي وجدت فيها متسعًا نفسيًا من السجن القشتالي التي تعيش فيه، وسعد يموت مفجوعًا" بعد أن شاهد بعينيه حرق امرأته المقيدة في كومة الأخشاب"[٦]، ومريمة تهرب من واقعها إلى عالم الأحلام، فتُحوِل أحلامها إلى رؤئ تعتقد في صدقها، وتنتظر تحققها، وعلي حفيد هذه العائلة والذي شهد موت الأمل وطَرْد أهل الأندلس، يُشرف على الثمانين من عمره في خضم حياة نفسية متكاملة، حيث القلق من الغد وما يحمله، وقد أثَّر ذلك التفكير عليه فلم يتزوج ولم يرغب في تكوين أسرة؛ خوفًا عليهم من نفس المصير، لذلك لا نجده يتبرم من مرور الأعوام دون زواج كما كان يفعل جده نعيم، ولا يأسف على ذلك؛ فهناك من الأحداث ما هو أهم وأجدر بتوفير الضيق والتبرم له.

ورغم أن الكاتبة لا تظهر تبرم أو ضيق علي من وضعه الاجتماعي إلا أنه يمكن للقارئ التعرف على هذه الزاوية النفسية عنده من خلال المقارنة بين الأجيال، فالزواج المبكر للشاب والفتاة كان من الثقافات المنتشرة في غرناطة، وقد عكست الكاتبة ذلك من خلال أحداث الرواية، فيقول الراوي عن تأخر نعيم في الزواج: "ساعتها عرف نعيم أن حظه تعس، وأن سوء الطالع قد يرافقه حتى ينحني ظهره وتسقط أسنانه.

تهون أم جعفر الأمر عليه:

- تأخرت صحيح، ولكنك مازلت في العشرين من عمرك!
- الثانية والعشرين يا أم جعفر"[٧].

فوصف سن العشرين بأنه سن متأخر على الزواج، واستدراك نعيم لقول أم جعفر بأن عمره اثنين وعشرين يدل على ثقل مرور السنوات على الشاب بدون زواج حتى وإن كان في بدايات عقده الثاني، كما أن هذه الأوصاف التي يصف بها نعيم نفسه (حظه تعس- سوء الطالع) لا نجدها موجودة عند علي؛ فالحالة النفسية لدية مشغولة بأمور أخرى أعظم خطرًا وأشد تأثيرًا.

والكاتبة أرادت أن يكون علي مقطوع النسب؛ فحكاية الصمود لن تستمر؛ فسوف تموت بموته، فلا يوجد من يُوَرِّثُه ما وَرِثَه عن أجداده حول الإسلام وحضارتهم البائدة في الأندلس، وإن تزوج فلا يملك الوقت لتعليم ولده ما علمه إياه جده؛ فقد تجاوز الثمانين من عمره، والكاتبة هنا تقدم تفسيرًا حيًا للواقع المعاصر اليوم في اسبانيا، حيث لا وجود للمظاهر الإسلامية والعربية هناك، ومن ناحية أخرى تقدم خطابًا تحذيريًا حول قضية التطبيع واندثار الملامح الأيديولوجية عند الأجيال اللاحقة.

وقد ساهم في التعرف على تلك القصدية النفسية طبيعة الاستخدام اللغوي في الرواية، حيث عبَّر عن الكاتبة، وفتح منفذًا عبرت الدراسة من خلاله إلى نفسية الكاتبة، وكشفت على مكنوناتها العميقة. فمن الإشارات اللغوية القوية في الرواية كلمة (عاريًا)، وهذا العري يبدأ عند الكاتبة بالعري الجسدي، حيث الفتاة التي كانت عارية من ملابسها، وهذا العري —كما تعرفنا سابقًا- لم يكن له أسباب ماجنة، ولكنه عري يكشف الخوف والرعب الذي تمكن من هذه الفتاة حتى لا تنتبه إلى جسدها العاري وهي لازالت فتاة، ولا تهتم لمواضع أعين الناس، كما أنها لا تَجري بحثًا عن أمان مادي معين، فقد وصلت إلى البيازين ولم يكن الكاثوليك قد وصلوا إليها بَعد، وعبَرت العديد من البيوت التي كان من الممكن أن تحتمي فيها، ومرَّت على العديد من الأشخاص، ومنهم أبو جعفر الوراق نفسه، فلم تتوقف، ولم تطلب الأمان، فما كانت تسعى لذلك، وإنما كانت تهرب من الخوف النفسي الذي يلاحقها ويهددها ولم تستطع التملص منه، لذلك بعد أن أصبحت في أمان مادي ظل خوفها ملازمًا لها؛ فكانت تبحث عن أمانها المعنوي في ظل ما رأته أو ما تعرضت له، ورغم أن أبا جعفر خلع عليها ملفه الصوفي، ليستر عريها ويعطيها بعض الأمان، إلا أنها مازالت تشعر بعري آخر، وأبو جعفر اكتفى بوضع ذلك الملف على جسدها فقط، ولم يأخذها معه إلى بيته كما فعل مع نعيم الفتى الصغير، فهي فتاة وهي الأولى بالرعاية والكفل، ولكن هذه إشارة من الكاتبة إلى أنه لا أمان مادي في الدنيا يمكنه أن يزيل عدم الأمان النفسي التي تعرضت له الفتاة، ولَمَّا لم تجد ذلك الأمان لم تستطع أن تحيا في عالم الخوف هذا، فُوجدت في اليوم التالي غارقة في نهر شانيل.

فهذا الخوف الذي سيطر على تلك الفتاة هو نفسه الخوف الذي سيطر على الكاتبة من خلال معاصرتها للأحداث حولها العربية والقومية، وهذا العري الذي يعكس الحالة النفسية غير المستقرة، لم يكن وصفًا خاصًا لتلك الفتاة، وإنما كانت الفتاة إحدى مظاهره، فهناك شخصيات أخرى تصفها الكاتبة من

خلال هذا العري النفسي، فنجد انعكاسًا آخرًا لتلك الحالة النفسية يظهر عند (سعد المالقي)، عندما يتأمل تبدل أحواله من الأمان والاستقرار في دفئ عائلته إلى الارتحال والخوف والرعب بعد مصير محطم بعد موت عائلته جَرَّاء بطش الاحتلال، فأصبح عاريًا ووحيدًا يطرق باب زوجته بهذا العري المثقل" لكنه كان بائسًا يفتقد أباه ويفتقد أمه ويفتقد الصغيرة والبحر وحقل العنب ويفتقد الحكمة في حكم السماء بأن يطرق باب عروسه عاريًا ووحيدًا"[٨]، فهذه الصورة تتماثل مع الاحتلال الذي عاصرته الكاتبة للعراق وما حدث للأهالي والناس هناك.

ومن مظاهر هذا الانعكاس النفسي التناسب اللغوي في وصف الأحداث، فيقول سعد حاكيًا قصة عائلته:" كان جدي قد مات جوعًا أو قهرًا، وكانت نفيسة الصغيرة قد قتلها الجوع أو ربما الخوف"[٩]. فاستخدم كلمتي (مات – قتل) للتعبير عن مفارقة الحياة، وانتسابهما إلى فئتين عمريتين مختلفتين، وكذلك اقترانهما بأسباب مختلفة (القهر – الخوف)، يعد دليًلا لغويًا على طغيان الحالة النفسية على الأحداث، فهناك فرق بين الموت والقتل، وقد جاء في القرآن الكريم الكلمتان معًا في قوله تعالى:" قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا
تمتعون إلا قليلًا"[١٠]، فالموت أن يموت الإنسان وحده وتخرج روحه، أما القتل فبفعل فاعل.

والفئتان العمريتان هنا (الجد – الحفيدة) لم يكن القهر أو الخوف أداة مادية أو إنسان قام بفعل ما أفضى إلى نزع الحياة من أبدانهما، ولكنهما كانا أداة نفسية، ولذلك كانت المنطقية اللغوية تتفق مع اختيار كلمة (الموت) أكثر من (القتل) مع الجد؛ فقد جاء هذا الاستخدام اللغوي ليوضح طبيعة الحالة النفسية المرتبطة بالسن، فالجد قد زهد الحياة لما لاقاه من ممارسات القشتاليين، حيث صودرت حريته وكرامته وثقافته وإنسانيته، وهذا ما عبرت عنه كلمة قهر، فالقهر كما عرفته شانون سوليفيان:" ترجع أهمية مفهوم القهر في علم النفس والصحة النفسية نتيجة للآثار السلبية التي يتركها على الأفراد والمجتمعات من اغتراب واكتئاب، قلق، إحساس بالدونية، انخفاض مستوى تقدير الذات لدى المقهورين نتيجة عدم المساواة"[١١]، ولذلك رغب الجد في الموت تخلصًا من هذه الحياة الذليلة، ومن ثم جاء الاستخدام اللغوي ملبيًا لهذه الرغبة النفسية.

أمَّا الحفيدة، فهي لازالت طفلة، ولذلك نجد أن المنطقية اللغوية تتفق مع اختيار كلمة (القتل) أكثر من (الموت)؛ فهذه الأحداث والممارسات المهيمنة تقع خارج حدود إدراكها، لذلك استخدمت الكاتبة كلمة (الخوف) فهو الشعور الملائم لطفلة، فتكوينها الفطري يميل إلى تجنب الأذى، وينطلق نحو الحياة، ومن ثمَّ استخدمت الكاتبة كلمة (قَتَلَها).

ورضوى عاشور لا تكتفى بإلصاق كلمة العري على الأشخاص، بل إنها تخلعها على الطبيعة أيضًا، فكأن الحياة بما تحوي أصبحت عارية، فتقول عن الأشجار:" دخلوا الغرفة الثالثة، كانت خالية، فخرجوا إلى الفناء وجدوا شجرتين عاريتين تمامًا من الأوراق، بدت فروعها كأعواد الحطب. صاح علي فجأة وهو يشير إلى زيتونة مورقة في أقصى الفناء: أنظروا

ضحك ابن فضة بغيظ:

- شجرة عجفاء ستلحق بالأخريات.... ماذا فيها لكي ننظر"(١٢).

ومن ثمَّ فقضية (سقوط غرناطة) والتي كانت متسعًا للعديد من القضايا التي نَفَذَت الكاتبة من خلالها إلى طبيعة الفكر الاستشراقي ونظرته حول الإسلام كانت وسيلة لتفريغ الغضب والتوتر والقلق، وقد عبرت رضوى عاشور عن ذلك فتقول: "أتساءل الآن إن كان العرب يلجأون إلى غرناطة حين تشتد حاجتهم للمراثي"(١٣).

لذلك لا نكون جانبنا الصواب إذا قلنا إن رواية "ثلاثية غرناطة" رغم كل هذا العمق الأيديولوجي الفكري والثقافي والديني والتاريخي، وما تحمله من معالجات كانت قصديتها المباشرة قصدية نفسية؛ فهذه الطاقات المتنوعة كانت في حقيقتها وسيلة للاستشفاء النفسي للكاتبة، حيث كانت تتنفس من خلالها هواء الهدوء والراحة، وتهرب من ظلمة الواقع وتوتره، ومن ثمَّ كانت الرواية وسيلة للتعبير عن مخاوف حالية وتطلعات مستقبلية، عبرت من خلالها الكاتبة عن مكنون نفسها، وما يؤرقها، فقد حوت الرواية أحاسيس ومشاعر عديدة لا تلتزم بخط واحد ولا يجمعها قضية واحدة، ولكنها أخلاطًا أيديولوجية، فكان الملهم للكاتبة ليس فكرة مباشرة محددة، وإنما كان نفسيتها العميقة، وهذه النفسية كان الفكر والروئ وحتى الأحلام أدوات لها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه النفسية المتوترة التي سيطرت على رضوى عاشور أظهرت العديد من القضايا التي كانت تشغلها، والتي ظهرت من خلال اللاوعي النصي بفضل التلقائية السردية عندها، فمن هذه القضايا ما كان استجابة لا واعية لبعض المؤثرات التي تعرضت لها الكاتبة، ومنها ما كان يحمل قصدية مضمرة جاءت أيضًا مُساقة من خلال اللاوعي النصي في الرواية.

**اللاوعي النصي في رواية ثلاثية غرناطة:**

اللاوعي النصي حالة نفسية عند الكاتب تجعله يضمن عمله قضايا وآراء مختلفة لم يكن يقصدها بشكل مباشر، ولكنها قضايا حقيقية حاضرة في فكره، تشغل عقله وتؤرق نفسيته، وهذه القضايا تظهر في لغته كما تدور في فكره وتؤرقه، وتظهر في أعماله مهما حاول اخفاءها، ومها صرَّح بعدم قصديته لذلك، فيذكر سيجمند فرويد أن اللاوعي يتعلق بوجود" عمليات عقلية أو أفكار قوية جدًا تستطيع أن تُحدث في العقل جميع الآثار التي تُحدثها الأفكار العادية"(١٤).

ومن القضايا التي ساقها اللاعي النصي قضية المرأة في الرواية، فهذه القضية –كما بحثناها في الفصل السابق– تملك قوة حضور في الرواية، حيث التأشير السيميائي السردي والتصويري، فمن الناحية اللغوية تشكل المرأة عدة صور سردية في أركان الرواية بأجزائها الثلاثة، ومع ذلك لا يمكننا أن نربط خطاب المرأة بقصدية الكاتبة لاعتبارات عديدة، أهمها أن خطاب المرأة وإن كان خطابًا تشكل في اللاوعي عند الكاتبة إلا أنه جاء مُستَفَزًا من خطاب المرأة في رواية "ظلال شجرة الرمان"، فعلاقة التأثير والتأثر فرضت هذا الظهور للمرأة –كما وضحنا في الفصل السابق –.

**وثانيًا** أن خطاب المرأة مرتبط بالحدث التاريخي نفسه، وارتباطه بقضية المرأة المعاصرة لا نكاد نلمس له دليلًا ظاهرًا إلا ما ظهر من سيطرة إحدى العائلات في الجزء الثالث من الرواية على قرار زواج المرأة، وهذا لا يمكن أن نعده قصدية؛ لاحتلاله حيزًا قصيرًا لا يتجاوز بضعة أسطر في رواية كبيرة، كما أنه يعبر عن ثقافة واحدة ضمن ثقافات عديدة داخل المجتمع الواحد ولا يقاس عليها؛ حيث قصرتها الكاتبة في حيز العادات القبلية،
بخاصة إذا وضعنا هذه الصورة أمام صورة المرأة بشكل عام في الرواية والتي كانت تمثل قوة كبيرة في المجتمع

أمَّا القضية التي مثَّلت القصدية المباشرة للكاتبة، والتي تشكلت من خلال اللاوعي النفسي فهي القضية الفلسطينية، فقد كان حضور هذه القضية حضورًا غير مقصود في وعي الكاتبة عند كتابتها الرواية، ولكن انشغال ذهن الكاتبة بهذه القضية انشغالًا كبيرًا هو ما جعلها تشغل الوعي واللاوعي عند الكاتبة، يقول سيجمند فرويد:" قولنا لا شعوريًا يعادل قولنا كامن ويستطيع أن يصبح شعوريًا"(١٥)، ولهذا ظهر اللاوعي رغمًا عن الكاتبة؛ فهي مناضلة مصرية عربية مسلمة من ناحية، ومن ناحية أخرى زوجة لفلسطيني مناضل وأم لابن ورث عن أبيه جنسيته، ومن ثم كان للاوعي الهيمنة المطلقة، حتى أصبحنا نشعر بفلسطين في كافة أرجاء الرواية.

**تحليل الخطاب الفلسطيني في رواية ثلاثية غرناطة:**

الخطاب الفلسطيني أو القضية الفلسطينية تتساوي حدثيًا مع قضية الأندلس، وذلك من حيث الأبعاد الأيديولوجية المختلفة، وكذلك من الموقع السياسي العربي والعالمي، كذلك يتشابهان في الأحداث الداخلية فكثيرًا من الأحداث التي مرَّت بها الحضارة الاندلسية يمكن اسقاطها بسهولة على بدايات الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وأيضًا الأحداث الدائرة حاليًا في فلسطين.

وانعكاس التاريخ الغابر للأندلس على القضية الفلسطينية لم تكن رضوى عاشور سبَّاقة إليه؛ فقد سبقها إليه أعمال فنية عديدة، حيث تناولت العديد من الأعمال الروائية حدث سقوط غرناطة، أو محنة الأندلس، أو معاناة الموريسكيين، تناولًا يعكس أحوال أمتهم المعاصرة –كما عرضنا في التمهيد–، فكان استلهام رضوى عاشور هذا الحدث للتعبير عن القضية الفلسطينية اتجاهًا عامًا عند الأدباء حيث النوستالجيا الأندلسية شديدة القرب لأحوال بلدان عديدة اليوم، لذلك راح كل واحد منهم يُشيد عمله الروائي وفقًا لما يعاصره.

وهذا الانعكاس في الآداب العالمية، قد اطَّلعت عليه رضوى عاشور، ويتضح ذلك من المحاضرة التي ألقتها في مدينة مدريد الاسبانية عن غرناطة، حيث صرحت أنها قرأت العديد من الأعمال الفنية التي تناولت غرناطة بوصفها وسيلة لتجسيد محنة تمرُّ بها أوطانهم، ومن هذه الأعمال التي أثَّرت فيها بشكل مباشر رواية "مجنون إلسا" للفرنسي لويس أراغون، ورواية" آخر بني سراج" للفرنسي الفيكونت دوشاتوبريان، كما صرَّحت رضوى عاشور بتأثرها بأحد الأعمال العربية التي استخدمت (غرناطة) لعمل اسقاط تاريخي على فلسطين، وهي قصيدة "أحد عشر كوكبا" للشاعر الفلسطيني محمود درويش التي شيدها على أطلال الأندلس وهي عبارة عن رمزية فلسطينية معتقة، فتقول رضوى عاشور: "يكتب درويش في غرناطة فلسطين تاريخًا وجدانيًا لأبناء زمانه؛ تاريخ غربة وانكسار وخوف. إنها (زفرة العربي الأخيرة) وقد تكسَّر الزمان من حوله شظايا. وبين وعي فلسطين ووعي غرناطة تتخلق القصيدة مبنى ومعنى"(١٦).

ومن ثمَّ فقد تضافر لدى رضوى عاشور ثلاثة مؤثرات في اللاوعي دفعتها للكتابة الرمزية عن فلسطين، أولا تأثرها بالأحوال العامة بوطنها الثان فلسطين، ثانيًا تأثرها بالاتجاه العام على الساحة السياسية، ثالثًا تأثرها بالأعمال الأدبية السابقة.

**فلسطين اليوم غرناطة الأمس في رواية ثلاثية غرناطة:**

لقد اقترنت قصدية رواية " ثلاثية غرناطة" عند أغلب الأبحاث والدراسات التي تناولت رواية "ثلاثية غرناطة" بقضية فلسطين، حيث ربطوا بين الأندلس وفلسطين، وبين غرناطة والقدس،(١٧) ورغم أن هذا الاسقاط اسقاط صحيح إلا أن الدراسات التي قامت بهذا الاسقاط لم تقدم دليلًا واضحًا يبرر هذا الاتجاه الأيديولوجي الذي قرنوه بقصدية الكاتبة، ولكنهم اعتمدوا على الاستدلال المنطقي للواقع الظاهري والتكوين الفكري للكاتبة، حيث اهتمامها بالقضية الفلسطينية فتعتبرها وطنها الثان، ومن ناحية أخرى هي الوطن الأول لزوجها وابنها. ومن ثمَّ كانت تلك التحليلات للنص خالية من احتمالات دلالية نابعة من النص نفسه، فلابد "أن تكون في النص نفسه احتمالات تقبل التأويل وإمكانيات تأويلية تنفتح أمام الرؤى المتعددة للقراء، أي أن يكون النص محتويًا على إشارات وفراغات وإمكانات قرائية متعددة، أمَّا النص الإشاري المعلق على معنى واحد فاحتمالات التأويل فيه قليلة إذا لم تكن منعدمة، وهذا الانفتاح التأويلي يتحقق بصورة واضحة في النصوص الأدبية أو ذات الطابع الفني"(١٨).

فعندما أرادت الكاتبة أن توضح دلالة غرناطة أو رمزيتها بالنسبة لقصديتها لم تنسبها إلى فلسطين، ولم تقصرها عليها، وإنَّما كانت غرناطة عبارة عن مجموعة من الأحداث والمِحن التي واجهت الأمة العربية، ويستطيع القارئ أن يُدرك ضمنيًا أن فلسطين واحدة منها، تقول رضوى عاشور:" ذات مساء شتائي وأنا أتابع على شاشة التليفزيون قصف الطائرات الأمريكية لبغداد. الأرجح أن المشهد فتح بابًا للذاكرة فالتقت بالمشهد مشاهد مثيلة: قصف الطائرات الإسرائيلية لسيناء عام ١٩٥٦ و١٩٦٧، قصف لبنان عام ١٩٧٨و١٩٨٢، والقصف المتصل للمخيمات الفلسطينية ومدن وقرى الجنوب اللبناني. في ذلك المساء وأنا أتابع أخبار قصف العراق، رأيت المرأة العارية تقترب وكأنني أبو جعفر الوراق في الرواية يشاهد في عريها موته... أعتقد أن رواية غرناطة ولدت في تلك اللحظة"(١٩).

وتؤكد على ذلك في موقع آخر بشكل مباشر فتقول:" لم أقصد إسقاطًا من أي نوع، بل إن الاسقاط بدا لي بذاءة منفرة"(٢٠). كما أن الكاتبة أفردت رواية كاملة تتحدث فيها عن القضية الفلسطينية وهي رواية(الطنطورية) التي صدرت عام ٢٠١٠، تحدَّثت من خلالها عن القضية الفلسطينية بشكل مباشر من خلال إحدى القرى الفلسطينية التي تقع على الضفة الشرقية والتي احتلت عام ١٩٤٨.

ومن ناحية أخرى نجد رضوى عاشور في حوار لها مع المصري اليوم تقول:" فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي حاضران بقوة في تاريخنا المعاصر وتجربة جيلي، وأيضًا في تجربتي الشخصية وهو ما يفسر حضورهما في نصوص الرواية. قبل الطنطورية بسنوات كتبت أطياف ١٩٩٩ وقطعة من أوربا ٢٠٠٣، تناولت فيهما الموضوع بشكل جزئي، ولكن أعتقد أن هذا الحضور يمتد إلى نصوص أخرى لا تتناول هذا الموضوع وإن بقي في هذه الحالة كالطيف خارج النص يمنحه بعض معناه، وقد يفسر شكله ومساره"[٢١].

وبهذا يكون الخطاب الفلسطيني لا يحتل القصدية المباشرة في الرواية، ولكنه قد يكون طرفًا فيها بناء على الدلائل الملموسة التي عكستها اللغة الظاهرة مع عدم تقديم أدلة روائية لدى النقاد الذين ربطوا الأندلس بفلسطين، حيث كانت تحليلاتهم مجرد استدلال نابع من ربطهم الشخصي بين النص وبين الواقع، كما أن الاعتماد على وجود بعض الإشارات إلى فلسطين في الرواية اعتماد خاطئ؛ لأن الدلالة المباشرة لهذه الإشارات دلالة معاصرة للحدث التاريخي في الأندلس، ولا تمت للتاريخ المعاصر للكاتبة بصلة.

وعلى الرغم من هذه الدلائل إلا أنه هناك لغة أخرى مشفرة وغير ظاهرة تشكَّلت من خلال اللاوعي النصي الذي سببته الحالة النفسية الداخلية للكاتبة، هذه اللغة تدلل على أنه رغم وجود العديد من القضايا داخل الرواية، إلا أن القضية الفلسطينية تمثل القصدية الأيديولوجية الروائية الوحيدة، وأنه رغم اختفاء التصريح بمكانتها في أركان الرواية، إلا أننا نشعر بأنها المحرك الأساس لكل أحداث الرواية وأن اختفائها لم يكن إلا دليلًا على الفضاء الواسع الذي تملؤه في وعي الكاتبة واللاوعي على حد السواء.

ونستطيع أن نستدل على ذلك من تنوع الدلالات التي قدمتها الكاتبة التي تجعل الخطاب الفلسطيني حالة نفسية طغت على اللاوعي النصي للكاتبة، حيث أصبحنا نقرأ الرواية وعين على غرناطة والأخرى على القدس.

**الانفتاح الدلالي للقضية الفلسطينية في الرواية:**

إن الدلائل الروائية التي تكشف الغطاء عن الخطاب متوفرة في رواية "ثلاثية غرناطة" سواء كانت في اللغة الظاهر أم المضمرة، وبعضها يتطلب قراءة تأملية والآخر يتطلب قراءة خلَّاقة، والقراءتان لا غنى لهما عن الخلفية الثقافية، والانفتاح الدلالي لقضية فلسطين يشير إلى رمزيات مختلفة تبدأ بالعنوان وتنتهي بالنص، وبينهما تقنيات فنية أيديولوجية خاصة باللغة الأدبية حيث تصبح هذه الدلالات واجهة جمالية للقضية يقف وراءها عمقها الأيديولوجي، يقول عبد الرحيم الكردي:" في النصوص الأدبية يصبح هذا الانفتاح التأويلي الناشئ من الضبابية مصدرًا من مصادر جمالها، وعاملًا من عوامل خلودها، لأنه لا يتعلق بتأويل المعاني المنطقية المحددة فحسب، بل بتأملات وانعطافات جمالية رشيقة وأبعاد نفسية عميقة وخيالات روحية"[٢٢]. وهذا الانفتاح الدلالي يمكن دراسته من خلال الانعكاسات المتقاطعة بين الزيتون والرمان في

الرواية والتي يمكن حصرها في الدلالات الآتية: الدلالة التصويرية، والدلالة اللغوية، ودلالة الغياب السردي، ودلالة الامتداد الزمن.

**١- الدلالة التصويرية**

تطالعنا هذه الدلالة قبل قراءة الرواية، بل قبل أن ندلف إلى أول صفحاتها، حيث الغلاف، وغلاف رواية "ثلاثية غرناطة" يحمل العديد من العلامات السيميائية، منها دلالة فلسطين، فغصنا الزيتون الشاخصين على غلاف الرواية تنبئنا بهذه القضية؛ فقد ارتبط بفلسطين سيمائية الزيتون قديمًا، حيث أصبحت أغصان الزيتون رمزًا للصمود عند الشعب الفلسطيني، وهذا الارتباط السيميائي معروف عند العرب وعند غير العرب أيضًا، فيذكر ب. ر جونستن أن" الفلسطينيين يعتبرون شجرة الزيتون رمزًا للصمود"[٢٣]. وهذه الدلالة التصويرية سنجد انعكاسات لغوية لها داخل النص الروائي.

**٢- الدلالة اللغوية:**

لقد كشف الاستخدام اللغوي للكاتبة عما يجيش في صدر رضوى عاشور، وما يؤرق نفسيتها، وقد انعكس ذلك على الصياغة اللغوية، والتي أفرزت نوعين من الدلالة اللغوية، الأولى مباشرة والأخرى غير مباشرة.

**أ- الدلالة اللغوية المباشرة**

وهي تتعلق بالتضمين السيميائي لكلمة فلسطين وما يرتبط بها (القدس) داخل الرواية، ورغم أنه تضمين يتعلق بزمن تاريخي مختلف كانت أوضاع فلسطين فيه مختلفة،" جاءهم الروم وغزوا أرضهم تمامًا كما حدث لنا، ولكنهم طردوا الصليبيين، فلماذا استطاعوا ما لم نستطعه"؟[٢٤]، إلا أن المقارنة الأيديولوجية بين فلسطين وغرناطة في ذلك التوقيت الزمني هو الذي فجر هذه الدلالة؛ فاستحضار صورة فلسطين بعد تحررها من عدوان الحروب الصليبية ووضعها في مواجهة مباشرة مع ما تمر به غرناطة من انتهاكات وعدوان، يدفع للتساؤل هل أخطأ الفلسطينيون - بعد ذلك- نفس الخطأ الذي أخطئه الأندلسيون، أم أنه الوجه الجديد للاحتلال الذي تدعمه دول الغرب نكاية في الإسلام وتأمينا لها من عودة مخاطره.

**ب-الدلالة اللغوية غير المباشرة:**

والدلالة غير المباشرة تعني تلك الاستخدامات التي خلت من التصريح بفلسطين أو القدس، ولكنها تتعلق بما يتعلق بهما من رموز، وهذه الدلالة غير المباشرة يمكن التعرف عليها من خلال استخدامين لغويين الأول كلمة (زيتون)، والثاني كلمة (عرب).

**أولا- دلالة كلمة زيتون:**

يَكثر استخدام كلمة (زيتون) في الرواية، فهو محور حياتهم وأساس اقتصادهم ولذلك تتعدد مواضع استخدامه، فحياتهم الاقتصادية قائمة عليه:" لم يكن الأهالي قد جمعوا الزيتون بعد"[٢٥]، وهو أيضا ذو موقع مركزي في مطابخهم: "الفطائر المقلية في زيت الزيتون"[٢٦]، وهذا التنوع في استخدامه يرتبط بسيمائية الغلاف حيث ارتباط الزيتون بفلسطين.

ورغم أن الرمان علامة دالة على غرناطة إلا أن الكاتبة لا تشير إلى شجر الرمان في الرواية بشكل مباشر أو غير مباشر، رغم علمها بالارتباط الدلالي بين ثمرة الرمان وبين غرناطة، فهي تضع صورة الرمان على غلاف الرواية، ورغم أن اسبانيا اليوم أول دول العالم الأن في إنتاج الزيتون، إلا أننا لا يمكننا أن نعقد صلة بين الزيتون وبين الأندلس باعتباره دلالة زراعية على هذا المكان، وهذا لسببين، الأول: أن الكاتبة أثبتت على غلاف روايتها غصني الزيتون وثمرة الرمان معًا، فلو كانت تقصد أن هذين النوعين من الأشجار دلالة مميزة لغرناطة كان من المنطقي أن تذكر الاثنين في متن الرواية، لا أن تثبت واحدة دون الأخرى كما فعلت مع الزيتون، السبب الثاني أنه بتتبع أنواع المحاصيل التي كانت تتميز بها غرناطة في عصر الحدث فكانت عدة محاصيل منها الزيتون وإن لم يكن أشهرها، بل إن زراعة الرمان على كثرتها لم تعرف استقرارًا[٢٧].

**ثانيا– استخدام كلمة عرب:**

ينقل الراوي رأي حسن في ضيفيه قائلا:" أعجبه سلوكهما الواثق وحديثهما العارف وشيء ما التقطه وإن لم يع كنهه تمامًا، شيء لم تتح له رؤيته في رجال غرناطة من أبناء العرب"[٢٨]، فكلمة (العرب) تؤدي وظيفتين في صناعة المعنى الدلالي، الوظيفة الأولى أنها الكلمة الاصطلاحية للتعبير عن الأندلسيين عند رضوى عاشور، وهي تصر على استخدام هذ الكلمة ولا تستخدم بديلا لها، فالمنطقية الروائية تستدعي استخدام المصطلحات المستخدمة في وقت الحدث لضمان صحة النقل التاريخي، ولإدخال القارئ في جو الأحداث، والكاتبة تدرك ذلك فتقول: "كان التوثيق التاريخي أساسيا؛ لأن مادة النص هي بعض تاريخ الأمة الذي لا أستسيغ العبث به أو فيه"[٢٩]، وتقول أيضًا: "كانت الوقائع التاريخية هي العنصر الأول بين عناصر التوثيق التي وظفتها في نصي، ولكنها لم تكن العنصر الوحيد إذ أضيف إليها التاريخ الاجتماعي والثقافي"[٣٠]، ومن ثمَّ فالاستخدام الاستبدالي لكلمة (الموريسكيين) يحمل قصدية محددة يشير إليها هذا الاستعمال اللغوي

والوظيفة الثانية أن استخدام هذا الكلمة يضمن كمية وافرها من الشحنات الانفعالية؛ لما لها من قدرة تعبيرية عن الأحوال الاضطهادية التي عانى منها المسلمون في ذلك الوقت على أيدي الكاثوليك، مما

يدفعنا إلى قول إن هذا الاستخدام الاستبدالي استخدامًا مقصودًا يدلل على قصدية محددة مرتبط بفكر الكاتبة ونفسيتها في آن واحد.

فلا يمكننا أن نتصور أن رضوى عاشور مع هذا النشاط الثقافي حول الأندلس بداية من اطلاعها على الخرائط والوثائق القديمة وحتى التعرف على أدق تفاصيل الحياة في الأندلس قد غفلت ذلك الاسم الذي أُطلق على المسلمين ازدراءً وتحقيرًا (موريسيكي)، كما أن الكاتبة قد ذكرت هذا المصطلح في موضع واحد، فتقول مريمة محدثة نفسها بعد استدعاء أحد أسياد غرناطة لها: "ما الذي يأتي بامرأة موريسيكية إلى دور أسياد غرناطة، مادامت ليست من خدم الدار ولا عبيدها[٣١]"، فهذا هو الموضع الوحيد التي تستخدم فيه الكاتبة هذا المصطلح، وهو في هذا الموقع يقدم مجموعة من الدلالات، أولها أن الكاتبة عالمة به مدركة له، ثانيهما أن هذا الاستخدام استخدام وصفي يعبر عن الطريقة التي يرى بها الآخر المسلمين، لذلك استخدمت المواقع الاجتماعية المتعلقة بهذا الاسم ( خدم – عبيد)، ولذلك فإن استخدام مريمة لهذا الاسم هنا لم يكن تعبيرًا أو وصفًا لنفسها، وإنما تعبيرا عما يشغله المسلمون في المنظومة المعرفية للكاثوليك، فتكلمت بلغة الآخر وبلسانه (أسياد غرناطة).

ورضوى عاشور لم تقصر تلك ذلك الاستخدام اللغوي عليها، بل تجعل الشخصيات الأندلسية نفسها يعدون أنفسهم عربًا، والآخر أيضًا يعد المسلمين عربًا، فيتحدث ضيفا حسن عن الأحوال في بالنسيه: " كان الملك فرديناند قد وعدهم مرارًا أنه لا تنصيرًا إجباريًا للعرب ولا ترحيل لهم، ولا قيود على تعاملاتهم مع نصارى المملكة"[٣٢]، فالسياق يقتضي كلمة مسلمين بخاصة أن الكاتبة لا تقصد التعميم الديني لتشمل الطوائف الأخرى، فهي تقصد العرب المسلمين منهم، ولكن الكاتبة آثرت استخدام العرب. ويقول حسن: "لا أفهم كيف يدافع النبلاء عن مصالح العرب وقد مولوا الحروب ضدهم وقدموا لفرديناند وإيزابيلا أنفسهم ورجالهم لغزو غرناطة؟!"[٣٣]، ويقدم الضيفان السبب:" قال عبد الكريم عندنا مثل في بالنسية كلما كثر العرب كثر المكسب"[٣٤]، فهذا الإصرار على الاستبدال اللغوي يعكس فكرًا أيديولوجيا يدل على أن هناك قصدية خفية وراء هذا الاستعمال اللغوي، والتي تنحصر في اتجاهين: الأول أن الكاتبة ترفض هذا الوضع الإزدرائي الذي خضع له المسلمون، وهذا يقود إلي الاتجاه الثاني حيث اسقاط كلمة العرب في الرواية على العرب في فلسطين.

**٣– دلالة الغياب السردي:**

إن عملية الاتصال التي تعتمد على أن الكلام الذي ينطقه الإنسان أو الأصوات التي تصدر منه مثل الضحك والبكاء والصراخ، أو التعبيرات غير الكلامية مثل لغة الجسد تؤدي جميعًا وظيفة تواصلية تُنقل

من خلالها الرسالة من مرسل إلى مستقبل، وهذه الرسالة التواصلية تكون ذات سمات خاصة إذا تعلقت باللغة الأدبية، ومن ثمَّ فإن الدلالة التصويرية والدلالة اللغوية كانتا تؤديان وظيفة توصيلية تواصلت من خلالها الكاتبة مع متلقيها. وعلى الرغم من ذلك فإنه هناك لغة أخرى تناولت من خلالها الكاتبة قضية فلسطين وأشارت إليها إشارات مضمرة كانت أعمق فكرًا وأشد تأثيرًا من اللغة المباشرة، وهذه اللغة هي (اللغة الصامتة)، ففي بعض المواقف يصبح الصمت لغة يُفهم من خلالها الخطاب؛ فتَعَمُد الصمت اللغوي يخلق نوعًا من اللغة تنساب في الرواية، وهذه اللغة قد نبهتنا إليها رواية "ظلال شجرة الرمان"؛ حيث إن التنوع الديني الذي تحوية الرواية هو الذي استثار المقارنة للبحث حول غياب هذا التنوع في رواية " ثلاثية غرناطة"، حيث لا نجد ذكرًا لليهود في الرواية، فالحدث لا يخص المسلمين فقط، ولكنه أيضًا يتعلق باليهود والبروتستانت.

واليهود هم أقدم الجنسيات الحيَّة التي سكنت شبه الجزيرة الأيبيرية قديمًا، فقد كانوا موجودين قبل وجود المسيحية، وكانوا يشكلون قوة اقتصادية كبيرة، وهم أول من اكتوى بنيران التعصب الديني قبل دخول الإسلام هذه المنطقة، حيث أُضهدوا ولاقوا ألوانًا من التعذيب باعتبارهم غير كاثوليك، وقد انتهج ملوك القوط مسلك الرومان في التعامل مع اليهود حيث كانت تُصدر قوانين دورية ضد اليهود والتي تبدأ من منع زواج اليهود من المسيحيات أو اقتناء عبيد مسيحين أو الاشتعال في وظائف الدولة إلى المذابح التي أقيمت لهم لدفعهم لاعتناق الكاثوليكية، وكان من أشد القوانين تنكيلًا بهم ما صدر من قوانين في المجلس الثاني عشر الذي عُقد عام ٦٨١ حيث صدرت ضدهم نفس القوانين التي أصدرها القشتاليون ضد المسلمين بعد ذلك في غرناطة، وقد جاءت هذه العقوبات نظرًا لأن المجلس الكنسي لاحظ أنه رغم قسوة العقوبات إلا أن أعداد اليهود لم تزل كبيرة ولا يزالون يمارسون العقيدة سرًا.(٣٥)

ومن ثمَّ فقد مثَّل اليهود تاريخًا أقدم في الوجود من الرومان والقوط والمسلمين، وكانوا أول من عانى من المذهبية والتعصب الديني، ولكن الكاتبة اسقطتهم من روايتها فلا نجد لهم أي ذكر، فعندما تعرضت للأزمة التي تعرض لها كل من وقع تحت مقصلة الكاثوليك عرضت للانتهاكات التي تعرض لها الأنواع السكانية المختلفة، فتعرضت للمسلمين وخصتهم بالذات الأكبر وتعرضت للمسيحيين البروتستانت، وأيضًا أشارت إلى الأعداء الفرنسيين والإنجليز، ولكنها أنكرت الوجود اليهودي. ويقول أحد الباحثين:" القص يلتزم الصمت إزاء أعمال العنف التي قام بها الغرناطيون ضد اليهود بعد الإعلان عن اتفاقية تسليم غرناطة، وإزاء طردهم من اسبانيا في عام ١٤٩٢، فقد شكلوا أول فئة في المدينة تم التخلص منها"(٣٦).

فهذا الصمت والتكتم أوجد نوعا من اللغة تعكس موقفا أيديولوجيا، حيث نشعر أن الأنفاس الفلسطينية تحوم في أرجاء الرواية لدرجة يصعب معها أن يجتمعا سويًا، ومن ثمَّ فإن غياب العنصر اليهودي من السرد الروائي يُعد اسقاطًا صارخًا غير مباشر على فلسطين. وتوضح الكاتبة موقفها من ذلك بشكل

مباشر فتقول:" اليهود عاشوا في أمان في ظل حكم العرب، ولكني لا أُؤرخ تلك الفترة، بل أكتب رواية، إي إنشاءً خياليًا يرتكز بطبيعة الحال على عناصر من تاريخ تلك الفترة، وأي إنشاء تاريخي قائم على اختيار أشياء وإسقاط أشياء أخرى، وأنا المصرية ابنة تجربة مصر في النصف الثاني من القرن العشرين المجلودة بالصوت الصهيوني، لم أجد نفسي شغوفة ولا مهمومة بالكتابة عن اضطهاد اليهود، ولم أعرف إلا اليهودي الذي جاءني محتلًا وغازيًا أو عنصريًا أو قاتلا"(٣٧).

**٤- دلالة الامتداد الزمني:**

تميزت رواية " ثلاثية غرناطة" بالامتداد الزمني الطويل الذي شمل الحدث بأكمله بداية من سقوط غرناطة حيث توقيع المعاهدات السرية، انتهاء بآخر ما تبقى من جود للإسلام في اسبانيا حيث الطرد العام لكافة الموريسكيين، وهذا الامتداد الزمني الطويل ما هو إلا آلية استخدمتها رضوى عاشور لعرض القضية الفلسطينية على كامل امتدادها، فسقوط غرناطة والهزيمة والاتفاقية تشير إلى اتفاقية أوسلو بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية الموقعة في عام ١٩٩٣، وثورة البشرات الأولى تشير إلى انتفاضة ١٩٨٧ في فلسطين المحتلة، وعودة الغرناطيين المنفيين يشير إلى حق عودة الفلسطينيين إلى فلسطين.

إذن فرضوى عاشور تستكمل نهج من سبقها حيث الإسقاط المعاصر على بلادهم وبالأخص تستكمل نهج محمود درويش، فثلاثية غرناطة في إحدى معانيها تمثيل لفلسطين، والكاتبة هنا تطرح سؤالا بقوة وإن كان خافيًا مستترًا لم تبح به اللغة المباشرة، وهو: **هل سيكون مصير فلسطين هو نفس مصير غرناطة؟** إذا تأملنا الرواية بشكل عام سنجد أنها عبارة عن محطات أو وقفات أيديولوجية تمثل إحدى شفرات الاستغاثة التي ترسلها الكاتبة من خلال الرواية، فتصوير الحياة في غرناطة ومعانة الناس هو تصوير لما يلاقيه الفلسطينيون، وتصوير الممارسات القشتالية الكاثوليكية هو تصوير لما تمارسه سلطات الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين من تعديات سافرة وانتهاكات مدوية، وتصوير انقطاع السبل بهم وانعزالهم وسط دائرة كاثوليكية نارية رغم وجود الخلافة العثمانية والعديد من الدول العربية بجوارها، هو تمثيل لحالة فلسطين اليوم التي تبات كل ليلة مهزومة منكسرة خاضعة تعاني ويلات الاحتلال رغم أنها داخل الحضن العربي، فما العون الذي كان ينتظره أهالي غرناطة إلا العون المعاصر الذي ينتظره أهالي فلسطين الآن، وهذا الأمل الذي كان يخف أهل غرناطة وانقطع، تتسأل الكاتبة هل سينقطع أيضا في فلسطين؟

ومن ثمَّ فإن تناول رضوى عاشور لغرناطة القديمة والقدس المعاصرة أزاح الستار عن نوعًا من الهيمنة العالمية، تحركها فلسفة نفعية خالصة، قامت من خلالها رضوى عاشور بتسليط الضوء على فلسفة القيادة العالمية واسقاط اقنعتها المزيفة، فالتطور العلمي والعسكري والاجتماعي الذي يعيشه العالم اليوم الذي يعكس رقي الإنسان وما استحدثه من أنظمة فكرية مثل العولمة والمثاقفة التي تقرب الدول من بعضها

وتقوي الصلات بينهم، ما هو في حقيقته إلا قناع مزيف تتزين به الأنظمة العالمية، ولا يوجد خلفها إلا نفس الوجه القديم لهذه الأنظمة التي تعتدي وتظلم وتسلب وتقتل من خلال مبدأ السيادة التي تتيح للقوي أن يغتنم الضعيف.

فبعد اكتمال حلقات الهيمنة القشتالية بسقوط غرناطة توحدت مملكة قشتالة وأرغون تحت اسم واحد (اسبانيا) وبلغ هذا التوسع من القوة ان أصبحت اسبانيا امبراطورية عظيمة القوة يخشى بأسها في أعقاب العصور الوسطى، وهذا الدور القيادي الذي تقلدته الإمبراطورية الاسبانية ماذا قدمت من خلاله ماذا كان عطاؤها؟ قامت باستئصال كلي لكل المسلمين في اسبانيا وطردهم من دورهم وأوطانهم بعد أن أذاقوهم مهانة الاحتلال وقسوته لأكثر من قرن من الزمان، بدافع من الولاية التي من خلالها أعطت الحق لنفسها في التحكم الكلي فيمن هم أضعف منهم، وقد التفت النص لهذا في الرواية ، حيث يتكرر هذا الدور في تعاملهم مع الأرض الجديدة التي اكتشفوها، فكانت سياسية البطش والإرهاب هي السياسية التي تتكئ عليها الإمبراطورية الاسبانية في قيادتها للعالم[٣٩].

ويتضح ذلك أكثر في العصر الحديث، حيث عدم الحيادية واختفاء الموضوعية وتبنى المصالح الشخصية فقط على حساب كل الاعتبارات الأخرى، حيث تقدم حكومة اسبانيا في العصر الحديث وثيقة اعتذار لليهود الذين سكنوا الأندلس قديما وطالتهم مقصلة القشتاليين، ورغم أن اليهود والمسلمين اشتركوا في الحياة معا على هذه الأرض إلا أن اسبانيا لم تعترف بالوجود الإسلامي ولم تقدم اعتذارا للمسلمين.

وفي العصر الحديث نجد ظهور امبراطورية جديدة تتمثل في أمريكا، ورغم أنها تتخذ من الحرية والديمقراطية والعدل والشفافية واحترام الإنسان وصون مقدراته، فماذا فعلت السياسة الأمريكية في العراق، وما الذي قدمته للقضية الفلسطينية، وما الذي قدمته لقضايا أخرى معاصرة.

النتائج والتوصيات:

لقد استطاعت الكاتبة أن تعبر عن قصديتها من عملها الأدبي، وأن تنقل الموضوعات والأفكار والأيديولوجيات التي تشغلها وتؤرقها، وأن تعرض قصديتها بموضوعية وحيادية، فكانت رضوى عاشور في الرواية تعبيرًا عن مشاعر العرب والمسلمين، حتى أن استخدامها للهيمنة النصية عندما اسقطت عنصرًا رئيسيًا من السرد(اليهود) كان ناجمًا من شعور وطني وقومي عام وليس شعورًا ذاتيًا فرديًا، ولم تحاول أن ترسم صورة مشوهة له أو تنسب إليه صفات منفرة، ولكن اكتفت بعدم ذكره، لذلك يتلقى القارئ النص بانسيابية يشعر معها أنه حر في اتخاذ قراره وفي تحديد رؤيته من النص، فالنص في رواية "ثلاثية غرناطة" لا

يفرض على القارئ أن يسد جميع الممرات للوصول إلى المعنى، ولكنه يخصص له موقعًا يكون فيه مشاركًا فعالًا، فيختار ما يشاء ويرفض ما لا يتوافق معه.

---

(١) رضوى عاشور: لكلٍّ غرناطته، من محاضرة ألقتها رضوى عاشور في مدريد بمناسبة صدور الترجمة الاسبانية للرواية سنة ٢٠٠٠، انظر ثلاثية غرناطة، ص٥٠٨.
(٢) المرجع السابق، ص٥٠٩.
(٣) نفسه، ص٥.
(٤) رضوى عاشور: الطنطورية، دار الشروق، ط١، ٢٠١٠، ص٥.
(٥) ثلاثية غرناطة، ص٢١٣.
(٦) المصدر السابق، ص٢٧٥.
(٧) نفسه، ص١٠٣.
(٨) نفسه، ص٧١.
(٩) نفسه، ص٨٨.
(١٠) سورة الأحزاب، الأية١٦.
(١١) Shannon Sullivan: The Physiology Of Sexist and Racist Oppression, 2015, oxford university press,p.125.
(١٢) ثلاثية غرناطة، ص٢٤٨
(١٣) رضوى عاشور: لكل غرناطته، مرجع سابق، ص٥١٣.
(١٤) سيجمند فرويد: الأنا والهُوَ، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط٤، ١٩٨٢، ص٢٧.
(١٥) المرجع سابق، ص٢٦.
(١٦) رضوى عاشور: لكل غرناطته، مرجع سابق، ص٥٠٧.
(١٧) من هذه الأعمال انظر:
١- إيمان عادل أنور: ثنائية الوصف التاريخي والمجتمعي لغرناطة، رسالة دكتوراه، جامعة دمنهور، كلية الدراسات الإسلامية للبنات، ٢٠٢٠، ص٤٨٠.
٢- خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي والتاريخي في روايات رضوى عاشور، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، كلية الآداب، ٢٠١٤، ص ١٠٩.
٣- جومانة السالم: غرناطة في الرواية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، الأردن، ١٩٩٩، ص٢٣٧.
٤- وزهير محمد عبيدات: ثلاثية غرناطة مقاربة الحاضر، دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٣، العدد٣، ٢٠٠٦، ص٥٩٤.
٥- وصبحية عودة: تقنيات السرد الزمني في الرواية التاريخية، مجلة جامعة الزيتونة الأردنية للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد٢، الاصدار ١، ٢٠٢١، ص١٤.
(١٨) عبد الرحيم الكردي: قراءة النص مقدمة تاريخية، ط١، مكتبة الآداب، ٢٠٠٦، ص٤٥.
(١٩) رضوى عاشور: لكل غرناطته، مرجع سابق، ص٥٠٨-٥٠٩.
(٢٠) المرجع السابق، ص٥١٠.
(٢١) ميادة الدمرداش: رضوى عاشور(الطنطورية) تحكي النكبة الفلسطينية... وتتصدى لسياسات الأمر الواقع، المصري اليوم، ٣٢-٩-٢٠١٠.
(٢٢) عبد الرحيم الكردي: قراءة النص، مرجع سابق،٦٤.
(٢٣) B.R Johnston. L. and others: Water,Cultural Diversity, and Global Envirnmental Change,UNESCO-IHP,2012,pg469

(٢٤) ثلاثية غرناطة، ص٤٧٣.
(٢٥) المصدر السابق، ص٤٥١.
(٢٦) نفسه، ٧٦.
(٢٧) انظر: أبو القاسم بن سراج الأندلسي: الفتاوى، تحقيق: محمد أبو الأجفان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، د.ط، ٢٠٠٠، ص١٦١. وانظر: بكارة حنان: واقع الزراعة بغرناطة فترة الكوارث الطبيعية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد ٧، العدد ١، ٢٠١١، ص٧٦
(٢٨) ثلاثية غرناطة، ص١٧٩.
(٢٩) رضوى عاشور، لكل غرناطته، مرجع سابق، ص٤٣٢.
(٣٠) المرجع السابق، ص٤٣.
(٣١) ثلاثية غرناطة، ص٢٩٠.
(٣٢) المصدر السابق، ص١٨٠
(٣٣) نفسه، ص١٨٠.
(٣٤) نفسه، ص١٨٠.
(٣٥) انظر: إبراهيم علي طرخان: دولة القوط الغربيين، مرجع سابق، ص١٦٦-١٦٧-١٦٨.
(٣٦) رمزية سقوط غرناطة في ثلاثية رضوى عاشور – إقبال سمير- عدد٦٦ -٢٠٠٥- ص ١٢.
(٣٧) رضوى عاشور، أنا مع البقاء دائما، الشعب، ١٧ أكتوبر، ١٩٩٥.
(٣٩) انظر: ثلاثية غرناطة، ص ٦٥.